مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد الحادي عشر ـ يوليو 2016م

التقدير الجمالي للبيئة

د. رضا كمال خلاف (*)

مقدمة:

تحاول هذه الدراسة أن تربط بين مجال التذوق الفني ومجال البيئة في إطار علم الجمال البيئي Environmental Aesthetics. والذي ظهر في النصف الثاني من القرن العشرين كحقل معرفي جديد يهتم بالإدراك الجمالي للبيئات الطبيعية والإنسانية ويتجاوز علم الجمال الفلسفي التقليدي أو "فلسفة الفن"[1].

وإذا كان الفن هو نوع من الكشف أو اللاتحجب[2] كما يخبرنا الفيلسوف الألماني "مارتن هيدجر" M. Heidegger (1889–1976) في مقالته الشهيرة أصل العمل الفني (أن الفن نوع من الكشف واللاتحجب مما يعني الانفتاح على أنماط من العيش والحياة أقل تدميراً من الأنماط الحالية[3]. وهذا مما يزيد من وعينا بسلوكياتنا، وعاداتنا اليومية المدمرة والعمل على تغيرها بسلوكيات وعادات تساهم في إنقاذ الأرض.

إن اخضرار العلوم والدراسات الإنسانية والفلسفة يقودنا إلى اخضرار وجودنا على هذا الكوكب الذي نشأنا من ترابه ونعود إليه، ويعبر اخضرار العلوم عن

(*) مدرس الفلسفة الحديثة والمعاصرة– قسم الفلسفة– كلية الآداب– جامعة المنوفية.

(1) Drenthen. (Martin): Environmental Aesthetics Fordham university press, Newyork, 2014. P13.

(2) عبد الغفار مكاوي: نداء الحقيقة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2010، ص138.

(3) هيدجر: كتابات أساسية ت/ إسماعيل المصدق المشروع القومي للترجمة، العدد 504، ج1، 2003 ص41.

تلون العلوم الطبيعية بالمفاهيم والأفكار المستعارة من الأيكولوجيا[4]،[*] من جهة، واستعانة البحوث البيئية بهذه العلوم من جهة. ومن هنا يأتي اخضرار الدراسات الإنسانية ليشمل تحليل الأزمة البيئية فيتجلى في نشوء بحوث وفروع معرفية جديدة تتداخل في إطارها العلوم الإنسانية والمفاهيم الإيكولوجية ومن هنا كان علم الجمال البيئي نافذة جديدة للتقدير الجمالي للبيئة من حولنا.

وبالرغم من التأثير الهائل للبيئة بشتى أنواعها على الإدراك الجمالي لم يلتفت كثير من باحثي علم الجمال إلى العلاقة بين هذين المجالين، والتي في الحقيقة كل يؤدي منهما إلى الآخر[5].

وتهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على علم الجمال البيئي منذ أشار إليه "رونالد هيبورن" Ronald Hepburns في مقالته الشهيرة علم الجمال المعاصر وتجاهل الجمال البيئي 1966 the Neglect of Natural Beauty مع وجود دوريات علمية متخصصة في علم الجمال البيئي والاتجاه إلى الاهتمام بجماليات الحياة اليومية والعمل على استشراف الاتجاهات المستقبلية لعلم الجمال البيئي من

---

[*] الإيكولوجيا: هي علم البيئة ظهر المصطلح في أواخر القرن التاسع عشر وقد اشتق "إرنست هكل" Ernest Haekl المصطلح من الكلمة اليونانية oikos (منزل الأسرة) ونقل دلالتها إلى (كوكب الأرض) بإعتباره هي منزل البيئة والإيكولوجيا : هي العلم الذي يدرس العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية والبيئة.

(*) مايكل زيمرمان: الفلسفة البيئية (من حقوق الحيوان إلي الإيكولوجيا الجذرية)، ت/ معين شفيق رومية، عالم المعرفة ، العدد 333 ، المجلس القومي للثقافة والفنون الآداب، الكويت ، 2006. ص8.

(4) مايكل زيمرمان: الفلسفة البيئية، ص 9.

(5) Allen Carlson, Environmental Aesthetics, P13.

تجاوز البيئات الطبيعية إلى البيئات الطبيعية الإنسانية مثل الحدائق إلى جماليات الحياة اليومية[6].

كذلك تهدف الدراسة إلى الإجابة على تساؤل ما هو دور الصورة في صعود الخيال البيئي ، وكيف ساهمت الصورة الفنية في إحداث تغير في عملية الإدراك، وما هي مكانة البيئة في المخيلة الثقافية المعاصرة.

كذلك كيف يمكن الارتقاء بالتقدير الجمالي للشئ من خلال الجمع بين مواصفاته الجمالية (اللون– الشكل– المضمون) وكذلك فوائده البيئية مثل توليد طاقة نظيفة أو أن يكون أقل تلوث للبيئة.

هل يمكن للفن أن يساهم في حل المشكلات البيئية مثل مشكلة "تغير المناخ[*] Climate change إلى أي مدى يمكن من خلال الفن التفكير في مصلحة الأجيال القادمة على المدى البعيد، فالتفكير العقلي فقط لن يدفعنا إلى ذلك لغياب الخيال، ومن ثم يمكن للفن أن يقوم بهذا الدور ليضعنا على الطريق الصحيح. وفي ضوء ذلك استخدمت المنهج التاريخي التحليلي ومن ثم قسمت الدراسة إلى:

أ. تاريخ علم الجمال البيئي.

ب. ثنائية جماليات البيئة وأخلاقياتها.

ج. دور الخيال البيئي في إحداث تغير في عملية الإدراك للطبيعة.

---

(6) Richard. Sutton: Aesthetics for green roofs and green walls, Journal of Living Architecture, 2014. P2.

[*] تغير المناخ: المناخ هو متوسط أحوال الطقس، وتغير المناخ يشير إلى تباين في متوسط حالة المناخ، والذي قد يكون راجعاً إلى عمليات داخلية طبيعية أو تغيرات بشرية ناشطة تؤدي إلى تغير في تكوين الغلاف الجوي... عبد المنعم مصطفى المقمر: الانفجار السكاني والاحتباس الحراري، عالم المعرفة، العدد 391، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، 2002. ص236.

أ- تاريخ علم الجمال البيئي:

العمل الفني دون منازع هو الصلة المتبادلة بين الفرد والمجتمع، وكثيراً ما تأثر الفنان ببيئته وبظروف عصره وعكسها في أعماله الفنية والأدبية، فالتذوق الجمالي هو عملية تفاعلية عند الإنسان بوصفه منتجاً له ومستقبلاً له[7].

إن السمة الغالبة على الخبرة الجمالية في الإبداع هي الإرسال أي توصيل رسالة جمالية من خلال وسائط جمالية، وكذلك تغلب على الخبرة الجمالية سمة الاستقبال حين يقوم المتلقي بإعادة بناء العمل الفني وفق خبراته وثقافته وتراثه، وهذه الخبرة الإنسانية تحتويها البيئة وهي مجال التفاعل بين الإنسان والمحيط الذي يعيش فيه[8]. وهذا المحيط له مستويات متعددة من مستوى طبيعي واجتماعي وثقافي وللإنسان عناصر متعددة تحدد مفهوم الجمال لديه مثل العنصر العقلي والمعرفي والوجداني والثقافي والعنصر الاجتماعي وكلما ارتفع مستوى التذوق الجمالي وتثقيف الحواس وتدريبها على إدراك عناصر الجمال كلما أرتقت علاقة الإنسان بالبيئة، وأصبح قادراً على تميز عناصر الجمال فيها وتنميتها والحد من العناصر التي تشوهها[9].

وتلعب البيئة دوراً هاماً واضحاً في صياغة الذوق الجمالي الفردي والجمعي لدى الإنسان... إذ تجعل له نظرته الخاصة ومعاييره المحددة كفرد وكعضو في الجماعة لخصائص الجمال، فهي تحبب إليه بعض الألوان دون غيرها في الوقت الذي تكون لديه سلم قيمي خاص للدلالات، والمعاني والحقائق. كما يسهم هذا السلم في تحديد رؤيته وفهمه للتناظر والرشاقة والجمال والتفرد، وهذا ما يمكن التعبير عنه بأنه البيئة بكل مستوياتها التي تسهم في نصيب آخر من صياغة

---

(7) Drenthen , (Martin) : P12.

(8) رمضان بسطاويسي: الجمال، سلسلة الشباب، العدد 11، دار الأمل للنشر، 2004. ص78

(9) رمضان بسطاويسي: مرجع سابق ص78.

القيم الجمالية. ورغم سيطرة الإنسان النسبية على الطبيعة وتمكنه من ترويضها فإن أسرار كثيرة للطبيعة لم تصبح طوع يدي هذا الإنسان[10].

وهناك إجماع على أن الطبيعة هي المعلم والمرجع والأصل للإبداع الفني ولقد قامت الفنون منذ البدء وحتى العصر الحديث على نقل الواقع الطبيعي بكل أبعاده حيث تتشكل نظرية "المحاكاة" القاعدة الأساسية لأي توجه فني[11].

وهو ما عبر عنه "أرسطو" حين ربط بين الفن والحياة وأكد أن الفنان يستمد وعيه من الواقع، وقد أساء البعض في فهم نظرية المحاكاة بأنها التقليد الحرفي للواقع، إلا أن "أرسطو" فرق بين الواقعية الساذجة وهي نقل الواقع كآلة تصوير، وبين الواقعية النقدية وهي كون الفنان له رؤية في إعادة إنتاج الواقع من جديد بإضافة فكره ووجدانه واستبصاره للواقع من خلال الفن[12].

والبيئة هي كل ما يحيط بنا وندركه بحواسنا وهي العنصر الخارجي الذي يشعر به الفنان ويعكسه في إنتاجه وهي تشكل البيئة الاجتماعية والجغرافية والطبيعية[13].

والبيئة بمعناها الطبيعي أو الفيزيقي تشمل كل ما يحيط بنا من مباني، حدائق، مناظر طبيعية، والبيئة بالمعني الاجتماعي هي القيم والفنون والتراث

([10]) بشير خلف: الجمال فينا ومن حولنا، دار الريحانة، الجزائر، 2008. ص51.

([11]) Allan : (D.J.), the philosophy of Aristotle, 2nd edition, Oxford university, press 1970. P167.

([12]) G.E.R Lioyed: Artistotle, the growth structure of his thought, Cambridge university, press 4th published, London, 1980, p274.

([13]) حافظ شمس الدين عبد الوهاب: التفكير العلمي وصناعة المعرفة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015 ، ص19.

والتقاليد والسلوكيات والأفكار والرؤى، وقد تكون البيئة هي الطبيعية في حالاتها البكر[14].

فالمجال الحيوي للكرة الأرضية يشتمل على جميع الأماكن التي يمكن أن توجد أو تعيش بها وهو كل صورة من صور الحياة على الأرض ومن تفاعل تلك الأنظمة مع بعضها يجد الإنسان الظروف والعوامل البيولوجية اللازمة للحياة وكذلك الحفاظ على استمرارية أنشطته الإنتاجية المتعددة[15].

ويؤكد "كانط" أن تأمل الطبيعة أمر مميز للإنسان يشترك فيه الجميع، فالشعور بالجمال الطبيعي ليس مجرد شعور عادي، لأنه طمأنينة النفس البشرية، بأن هذا الكون هو المكان المناسب والملائم لنا... هو المأوى الذي تتجدد فيه طاقتنا وأمالنا وأفكارنا الإنسانية[16].

وهذا ما دفع "كانط" إلى التمييز بين الجمال الحر الذي نشعر به مع الأشياء الطبيعية فهو الذي يأتي إلينا دون توظيف لأية مفاهيم، وبين الجمال المجسد في الأعمال الفنية والذي يعتمد على تصورنا للمفاهيم والتعبير عنها بشكل جمالي فهناك نوعان من الجمال، الجمال الحر التلقائي والجمال الفني، الأول لا يحتاج في تقيم موضوعه لأي تصور فالأزهار هي جمالات طبيعية حرة هي تسر بشكل تلقائي[17].

([14]) علي محمد علي عبد الله: التلوث البيئي والهندسة الوراثية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992، ص31.

([15]) منى قاسم: التلوث البيئي والتنمية الاقتصادية، مكتبة الأسرة، 1999، ص37.

([16]) Cooper (D): A companion to Aesthetics. Black well (pub.) 1st td 1996, p250.

([17]) إنوكس: النظريات الجمالية (كانط– هيجل– شوبنهاور) ت/ محمد شفيق شيا، منشورات بحثون، بيروت، 1985، ص60.

ومن هنا فإن تذوق الجمال الطبيعي صفة مشتركة لدى كافة البشر ومهارة متأصلة في قلب ملكة التفكير فكافة الكائنات العاقلة وفقاً لـ "كانط" تمتلك القدرة على إطلاق الأحكام الإستطيقية[18].

وما يجب على الإنسان التماسه في علاقته بالطبيعة ليست الهيمنة الكامنة عليها، بل طريقة في العيش أي أسلوب في العيش والتفاهم مع شئ كان قبلنا وسوف يستمر بعدنا[19].

وهذا ما دعت إليه جماليات البيئة وهي حقل جديد نسبياً من الجماليات الفلسفية نشأت من داخل الجماليات التحليلية في الثلث الأخير من القرن العشرين كرد فعل للجماليات التي تركز على التقليد التحليلي في فلسفة الفن والسعي بدلاً من ذلك إلى التحقيق في التقدير الجمالي للبيئات الطبيعية وليس الاقتصاد على ذلك فقط، بل يمتد البحث من نطاق جماليات البيئة إلى جماليات الحياة اليومية[20].

لقد كان مقال "رونالد هيبورن" علم الجمال المعاصر وإهمال الجمال الطبيعي 1966 هو خطوة أولى جذبت الانتباه إلى مجال الجمال البيئي ومن ثم تتطور إلى الدعوة إلى التقدير الجمالي للطبيعة حيث يوجد إبحار وتقصي فلسفي عام للتجربة الجمالية فيما وراء عالم الفن[21].

كذلك لعبت مقالات "آلن كارلسون" Allen Carlson دوراً هام في تسليط الضوء على التقدير الجمالي للبيئات الطبيعية ، وضرورة الانتباه الفلسفي للتجربة الجمالية للعالم الطبيعي ، كذلك أكد على وجود تشابه أساسي بين التقدير الجمالي

([18]) مايكل زيمرمان: الفلسفة البيئية، ص161.
([19]) Denis Dumas: Kant`s contribution to environmental aesthetics P73.
([20]) Emily Brady: Aesthetics in practices: valuing the natural world. University of Edinburgh white horse press , 2006. P278.
([21]) Drenthen. (Martin) : Environmental Aesthetics . P13.

للطبيعة وما هو متعلق بالفن، ومن ثم اقترح أنه يجب فهمه على إنه مماثل لما في الفن ولهذا فإن ذلك التقدير الفني يمكن أن يظهر شيئاً مما هو مطلوب في التقدير الجمالي للطبيعة. وفي حالة الفن فإن التقدير الجمالي الملائم قد يتشكل من خلال تاريخ الفن والنقد الفني وعلى سبيل المثال التقدير الجمالي لعمل مثل لوحة جورنيكا(*) 1937 لـ "بيكاسو" تتطلب أن نعايشه كرسم تكعيبي، ولهذا يذهب "كارلسون" أنه بمنتهى الجدية يكون التقدير الجمالي الملائم لأعمال الفن إنه جوهري وأن الفنان سيعايش العمل وستكون لديه خبرة والأمر نفسه هو حالة التقدير الجاد والملائم للجمال في البيئات الطبيعية[22].

كذلك تطور علم الجمال البيئي في بواكير 1990 مع نشر كتابين لـ"أرنولد برلينت" Arnold Berleant الفن والإلتزام وعلم جمال البيئة ، وفيه رفض الكثير من النظرية الجمالية التراثية مؤكداً أن تجربتنا مع الطبيعة حافلة بالنزعة الحسية، ثم أكد على التذوق الجمالي للبيئات الطبيعية ورؤية البيئة على إنها مجرد وحدة أماكن وتنظيمات وإدراكات، ومن ثم أصبح علم الجمال البيئي شكل جديد من البحث من خلال تجربتنا الجمالية مع الطبيعة. وأوضح "برلينت" أن بعض البيئات والمناظر ينقصها التنويه الإنساني الذي يحدد مظهرها وجمالها مرة أخري ولقد أخذ علم الجمال البيئي على عاتقه مهمة توجيه الانتباه إلى تلك المسائل الجمالية[23].

(*) جورنيكانا: لوحة رسمها " بيكاسو" كرد فعل لهجوم الناوي على قريه جورنيكا 1936 بأسبانيا وتحطيمها بالقنابل ، اللوحة ألوانها رمادية معبرة عن الدراما والمأساة من أثر الحروب وتكثر بها الأشلاء وبعض الجثث. (*) محمود البسيوني: الفن في القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ، 200، ص110.

([22]) Allen Carlson: Tenseness in development of western environmental aesthetics, fond ham, un, press, 2014. P13.

([23]) Arnold Berleant, ed,. Environment and the Arts: perspectives on environmental aesthetics. Alder shot, Hampshire, uk, and Burlington, vt 2002. P127.

لقد عبر الفن بشكل كبير عن صلة البيئة بالفن ، فالفن يتأثر بثلاثة أشياء الجنس والبيئة والعصر، ويجب ألا نغفل الصلة بين العمل الفني والبيئة والتي يجسد العمل كل ما يسودها من قيم وثقافات وعادات وتقاليد ومن ثم نجد علاقة تبادلية بين الفن وجوانب الحياة السياسية والاقتصادية والدينية[24].

كذلك توجد صلة بين الفن وظواهر البيئة المناخية من حرارة وبرودة وجبال وسهول وأنهار وذلك يتضح من الطابع العام الذي يتميز به فن وأدب أمة من الأمم. الفنان نتاج بيئة[25] ولهذا ربط "جون ديوي" Dewey, John بين الفن والتجربة فهو يسبغ على الخبرات الإنسانية بصفة عامة طابعاً جمالياً وليس هناك فاصل بين الخبرة الجمالية والخبرة اليومية ولهذا ليس هناك فرق بين الفنون الجميلة والفنون التطبيقية[26].

دائما ما نظر الإنسان للطبيعة على إنها لغز كبير، وليس معنى ذلك النظر إلى الطبيعة على إنها شئ لابد من إخضاعه لنا وتغيره تبعاً لنزواتنا البشرية، إن سلوك الفرد تجاه الطبيعة ينطلق من وازع البر، وهو صوت ينبهنا بأنه يتوجب علينا التفكير ككائنات فانية أي أننا لا نستطيع معرفة كل شيء والتحكم في كل شيء، الطبيعة هي رحم وجودنا[27].

وكانت لأراء "روسو" (1712–1778) والتي نادت بالرجوع إلى الطبيعة والفطرة أثر كبير في الاهتمام بالطبيعة وما بها من جمال والتعبير من خلالها عن الذات الإنسانية[28]. يقول "روسو" (إنني أشعر كما لو كنت قد سقطت فوق الأرض

([24]) محمد كمال الدين يوسف: الأدب والمجتمع، القاهرة، 1964. ص30.

([25]) Richard K. Sutton: Aesthetics for green roofs and green walls, p3.

(26) Ibid : P4.

([27]) مايكل زيمرمان : الفلسفة البيئية ، ص164.

([28]) William Vaughan: Romantic Art, Thames and Hudson, ld, London, 1978. P278.

من كوكب أخر أحيا به فكل ما ألاحظه في العالم الخارجي لا يبعث في نفسي سوي الألم) ولهذا حمل "روسو" راية العودة إلى الطبيعة للكشف عن قواها وسحرها وقدرتها في الخلق ، فالفن هو تعبيراً صادقاً عن الطبيعة الأولي[29].

وكانت أراء "روسو" لها أثر كبير في تكوين جماعة "باربيزون"[*] أو جماعة الخروج إلى الطبيعة عام 1830 وقدم الفنانين بها موضوعات مستوحاة من الطبيعة الخلابة حيث نشأ نوع من الفن جديد يعالج طريقة رسم المنظر الطبيعي مستغلاً نظريات العلوم الحديثة في تحليل ضوء الشمس وألوان الطيف ومن ثم تكون المذهب التأثيري[30].

كذلك لعبت الطبيعة مصدر الإلهام والتناغم دوراً أساسياً في نهضة الفن الرومانسي الذي قام على أساس التعبير عن العواطف والانفعالات والاهتمام بجمال الطبيعة وسحرها وتأثيرها على حالة الفنان وانفعالاته ، وبرز من خلالها أشهر مصوري الطبيعة الفنان "وليم ترنر" (1775–1851) Turner, J.M.W اشتهر بتصوير الطبيعة الإنجليزية وتصويره للمسافات اللانهائية وقمم الجبال وهو انطباعي بألوانه البيئية وكانت أعماله مفعمة بالتناغم بين العمل الإنساني والمنظر الطبيعي موضحة أهمية تفاعل الفنان مع الطبيعة[31].

([29]) محمد مجدي الجزيري: الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيير، دار الوفاء، 2002. ص175.

([*]) باربيزون: جماعة من الفنانين هجرت باريس 1830 هروباً من الأسلوب الكلاسيكي الذي فرضه الفنان "أنجر" إلى قرية باربيزون وقام الفنانون برسم موضوعات مستوحاة من الطبيعة وأهم فناني حركة باربيروزن "تيودور روسو" (1812–1867). عبد الفتاح مصطفى غنيمة: أصول البحث في الفنون التشكيلية والتطبيقية، مطابع جامعة المنوفية، ص142.

([30]) عبد الفتاح غنيمة : المرجع السابق ص143.

([31]) Sara Cornal: Art (history of changing style), phaidon, oxford, 1983, p316.

كذلك استلهم شعراء وأدباء العصر الرومانسي أفكارهم من الطبيعة وجمالها ومنهم"كولريدج" والذي صور الطبيعة في أعماله الشعرية من خلال قصيدته "البحار العجوز" التي توضح عشق المغامرة وحب الرحلات الاستكشافية في الطبيعة فيقول: (الهياكل المحترقة الداكنة لأوراق الشجر، تمضي وهي تعبر الجدول الجاري في غابتي، عندما تنوء الأشجار الشائكة بالثلج، وتصرخ البومة على الذئب)[32].

أيضاً صورت قصيدة "جيمس توماس" الفصول والتي انتشرت بين عامي (1726–1730) جمال الطبيعة والذي يتوازن مع القدرات البشرية ودار موضوعها حول جمال الطبيعة وعن مواسم الحصاد وعن الأرض وزراعتها مع الإشارة إلى التحولات الطبيعية للفصول وأثرها على النفس الإنسانية[33].

وبذلك ظهر مصطلح الصور الرائعة "pictures esau" ضمن مصطلحات الحركة الرومانسية لوصف المناظر الطبيعية ولعبت الخلفيات المظلمة في اللوحات التصويرية دوراً كبيراً في إضفاء إحساس بالغموض على اللوحات التي تصور الطبيعة وحمل مصطلح الصور الطبيعية التعبير عن المشاعر الرقيقة مثل الرثاء والخوف[34].

إن فترة القرن الثامن عشر شكلت ما يمكن أن نطلق عليه علم الجمال البيئي والذي اهتم بمسائل الحكم الجمالي واستجابات البشر للتجربة الجمالية أكثر من الاهتمام بانطولوجيا الموضوعات الجمالية ومن ثم يطرح علم الجمال البيئي

(32) د.و.ها رونج: الرومانتيكية في الأدب الإنجليزي، ت/ عبد الوهاب المسيري، مؤسسة سجل العرب، 1964. ص193.

(33) Sara Cornal : Art , P294 .

(34) Ibid: P295.

(35) - Martin Drenthen: environmental aesthetics , p40.

فكرة كيف نقدر ما هو جمالي في البيئات الطبيعية وما هو النموذج الملائم لتذوق الطبيعة وكيف نطور من فكرة التقدير الجمالي المناسب للطبيعة وما الذي يرشدنا لنقدر الجمال في الطبيعة[35].

وإذا كان التذوق الجمالي هو أحد محددات السلوك الجمالي الذي يكتسب المعرفة عن طريق الإدراك والتخيل وتنمية هذا السلوك تجاه البيئة يأتي تنمية التذوق الجمالي لدى الإنسان والذي يبدأ من مرحلة الطفولة. فالتذوق الجمالي هو موقف منزه عن الغرض، وهو انتباه وتأمل متعاطف من خلال عزل الموضوع المتأمل وهذا التأمل هو باعث على نوع خاص من الارتياح والموقف الجمالي هو أن تستجيب للموضوع الذي تتذوقه بطريقة متوافقة معه[36].

وهذا ما أكد عليه "أرنولد بيرلينت" من خلال مؤلفة "الفن والالتزام" وعلم جمال البيئة، والذي يوضح أن التجربة الجمالية الملائمة معقود عليها أن تتضمن الانغماس الحسي للمتذوق، ولقد رفض برلينت الكثير من النظرية الجمالية التراثية حيث رأى أن مفهوم التنزه عن الهوى إنما يتضمن تحليلاً خاطئاً للتجربة الجمالية وهذا أكثر وضوحاً في تجربة البيئات الطبيعية، وعلى هذا بالنسبة للنظرة الملتزمة أن تقدير المنزه عن الهوى وتباعده هو خارج المكان في التجربة الجمالية للطبيعة، ذلك إنه بشكل خاطئ يحدث تجريدات للموضوعات الطبيعية وتقديرات من البيئات التي فيها يحتمل أن يعيشوها والتي فيها التقدير الملائم يتحقق، إن "برلينت" يؤكد الأبعاد الحسية والجمالية للطبيعة وتجربتنا الحافلة بالنزعة الحسية لها وبرؤية البيئة على أنها مجرد وحدة وتنظيمات وإدراكات لهذه التجربة الجمالية الملائمة والتي معقود عليها أن تتضمن الانغماس الحسي للمتذوق في موضوع التجربة[37].

([36]) رمضان بسطاويسي: علم الجمال، ص78.

([37]) Arnold Berleant: Environmental and the Arts , p127.

إن علم الجمال البيئي وسع مجال البحث واحتاج إلى استبعاد مجاله الخارجي داخل البحث الجمالي لكي يوجه الانتباه إلى تلك المسائل الجمالية الخاصة بالبيئة، والآن في ظل علم الجمال المهيمن عليه الفن، فإن البيئة تميل إلى أن يجرى تناولها كفن من الدرجة الثانية أو الفن المتاح من جراء تركيزه النسبي للبناء الشكلي الموحد والصفة التعبيرية النمطية للفن وفي الوقت نفسه فإن هذه الملامح الخاصة بالبيئة مثل الالتزام والتقدير وتقصي القصد الفني قد قدمت اتجاهاً جديداً للممارسة الفن يخلق تواصل مثمر بين الفن والبيئة، وهذا يتضح تماماً في فن البيئة والذي يلقي ضوء كاشف على تجربتنا النمطية للبيئة[38].

إن الفن البيئي لم يكن يحمل دلالاته الإستطيقية المحيطة بقدر ما كان يعني بجوانب تطبيقية ذات منحنى وظيفي تعني أن النتاجات لم تكن آنذاك نتاجات إستطيقية لغرض التأمل وإنما تقترن بطقوس وممارسات سحرية أو دينية أو ميثولوجية ، وقد كانت تلك النتاجات تجسد أساسيات إلهاماتها مصدره البيئة، خامة وتقنية ومناخاً وسلوكاً، كما أن هذه النتاجات لها ترسباتها ومعانيها في الشعور الجمعي لدى كل أمة بوصفها رسالة ذات رموز جمالية أنتجت بفعل إرادة شعبية[39].

إن الفن البيئي قد ساعد على فتح المجال للفن العالمي، فن يسيطر فيه الفنان والطبيعة السالبة للعمل على الموضوع الجمالي، ومن ثم جرى الاهتمام في الفنون البيئية بالبحث فيما وراء البيئات المكانية للاهتمام بأوجه النشاط والعلاقات

([38]) Martin Drenthen : Environmental Aesthetics, p26.

([39]) علي شناو آل وادي: فلسفة الفن وعلم الجمال، دار صفاء للنشر، عمان، 2012. ص79.

الإنسانية مع كل بيئة وأوجه النشاط المقام فيها إلى الاهتمام بجماليات الحياة اليومية[40].

إن لكل بيئة تحولاتها وأسرار حيثياتها وطبيعة موادها ومناخها وتركيبة البيئة العقلية لدى أفرادها مما ينتج عن ذلك سلوكيات تتفق مع هذا الاتجاه، إن النتاج الاستطيقي ذو المواصفات البئوية إنما هو بفعل وإرادة الإنسان في أنه يضفي قيمته الإستطيقية من خلال علاقة جدلية تبادلية بين الفنان والبيئة.

إن الفن البيئي يعد محاولة للتزاوج بين ما هو ذاتي إبداعي يتمثل بقدرات الفنان الخلاقة وبين ما هو موضوعي خارجي يتمثل في الخامات والموضوعات وطبيعة إرتباطها وإفرازاتها الخارجية، كما إنه محاولة في إعادة تنظيم الوسط البيئي الخارجي برؤية إستطيقية ذاتية[41].

ب - ثنائية جماليات البيئة وأخلاقياتها

ميز "كانط" بين الجمال الحر والذي نجده مع الطبيعة، والذي يأتي إلينا دون توظيف لأي مفاهيم ، والجمال الاعتمادي الذي نراه في الأعمال الفنية ولا يمكن تحقيق التنزه عن الهوى إلا عندما نتوجه إلى الطبيعة[42].

إن الطبيعة كما رآها "كانط" أمراً مميزاً للجنس البشري فالجميع يشترك فيه، ورغم ذلك وصف " كانط" الحكم الجمالي بأنه حكم فردي أي أنه يمثل موضوعه بغض النظر عن كافة الاهتمامات ورغم ذلك نجد أن الطبيعة تتغلغل في كل شئ

(40) Martin Drenthin : Environmental Aesthetics , p30.

(41) Ibid. p31.

(42) Denis Dumas: Toward an Aesthetics of respect, Environmental Aesthetics, p76.

إن سحرها وجاذبيتها ليس فقط لوجود التناسق والوحدة والعقل ولكن لجلالها وأتساعها كما لو كانت عالماً وحدها نتواجد نحن فيه وليس هي[43].

إن علم الجمال البيئي يطمح أن تصبح القدرة على تطويع الطبيعة وتحويلها إلى مأوى آمن للجنس البشري والرغبة في حماية الحياة البرية، الرغبة في رؤية العالم الطبيعي كموضوع للتأمل، والكف عن النظر للطبيعة على إنها شيئاً ينبغي قتاله والحصول عليه.

إن تجربة تأمل الجمال الطبيعي والتطلع إلى تقديره وتقديمه للأجيال القادمة تجربة تعيد لنا الطمأنينة والسكينة بأن هذا العالم هو المأوى إنه مكان تتجدد فيه أحلامنا وأمالنا وتطلعنا أن نكون أكثر إنسانية[44].

لقد ميز "إدموند بيرك" في أطروحته "حول الجميل والجليل" بين نوعين مختلفين جذرياً من الاستجابة للجمال بصفة عامة ، وللجمال الطبيعي بصفة خاصة حيث أن النوع الأول ينشأ نتيجة الانسجام، والآخر نتيجة الخوف، فعندما ننجذب لتناغم ونظام وصفاء الطبيعة بحيث نشعر بنوع من الألفة والارتياح معها فإننا نتحدث عن جمالها، أما عندما نتأمل كما في إحدى المنحدرات الجبلية الهائلة الاتساع نشعر بضئالتنا أمامها فإننا نتحدث عن الجمال المهيب أو الجلال[45].

ولقد ذهب "كانط" إلى أننا في معاينتنا للجمال المهيب نجد محاكاة لقيمتنا الشخصية كمخلوقات تعي اتساع الطبيعة وتمتلك القدرة على تأكيد ذواتها ضدها ومع ذلك إن المفهوم الأعلى الذي يحكم المرء إزاء مجمل العالم هو فضيلة البر

([43]) Ibid, p76.

([44]) Arlond Berleant: Environmental and the Arts, p128.

([45]) Ibid : P 128 .

تلك الفضيلة الأرفع ، وهي تهذيب الإرادة بالاحترام والاعتراف بحق الوجود لأشياء أوسع من الأنا، أشياء تختلف عن الأنا، ولأجل إعادة الانسجام إلى عالمنا يحتاج إلى احترام ثلاثة أشياء، الطبيعة والناس الآخرين، والماضي والأكثر أهمية هو الطبيعة[46].

إن "كانط" يؤسس لفلسفة في الأخلاق في حرية الإرادة، وهذه الإرادة قد تحدث على أنها ملكة الأداء بمقتضى المبادئ، إن الأساس المحدد الوحيد للإرادة هو القانون الأخلاقي لكن البشر ليسوا عقليين بشكل خالص، فهم أيضاً كائنات حساسة، وهكذا فإن لديهم احتياجًا نفسيًا من الدوافع، فما هو منطقي تال للقانون الأخلاقي، وقادراً على توليد اهتمام في تشكيل الواجب الأخلاقي، وهذا الاهتمام هو ذاته دافع الإرادة. إن الدافع الذي يغرينا للحاجة إلى التصرف أخلاقياً هو الشعور بالتوقير الذي نظهره عندما نتواجه مع القانون الخلقي[47].

وإذا كانت الطبيعة هي وجود الأشياء المتعين بحسب قوانين كلية، فإن القانون الخلقي يبث فينا شعوراً خاصاً بالتوقير بفضائله لها ليكون لدينا اهتمام بتحقيق واجبنا الأخلاقي[48].

كذلك في كتاب "كانط": "ميتافيزيقا الأخلاق" فإن "كانط" يصوغ الأطروحة نفسها إن التوقير يحدد بشعور يقدمه العقل ذاته أو كتأثير مباشر للقانون الخلقي على الذات، وأن الأخلاقيات تهمنا لأننا نظهر رضاء عند إنجاز الواجب الخلقي، وهنا نري صفة هامة للمفهوم الكنتي عن التوقير والاحترام هو ليس إلا القانون

([46]) مايكل زيمرمان : الفلسفة البيئية ، ص 334 .

([47]) Denis Dumas: toward an Aesthetics of respect: Environmental Aesthetics p77.

([48]) إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً، ت/ نازلي إسماعيل حسين، دار الكاتب العربي ، 1967، ص97.

الخلقي الذي يمكن أن يكون موضع الاحترام وليس أخلاق البشر. إن الاحترام دائما ما يوجه وحسب للأشخاص وليس للأشياء ولكن قد توقظ الأشياء وحتى الحيوانات فينا رغبة أو حباً مثل الجياد لشئ ما يأتي بشكل أخر لهذا الشعور هو الإعجاب عند رؤيتنا للجياد الرائعة بقوة ورشاقة الحيوانات.

لقد ظن الناس طوال قرون أن سعادتهم تتطلب انقضاض لا يرحم على الطبيعة وبطريقة استهلكت فكرة أن الطبيعة عدائية تجاه الإنسان بحيث أن كل خطوة من التقدم تقاس بمدى تبادلنا لهذه الصفات، لا شئ غير استعادة فضيلة البر يمكن أن يحل الإنسان من هذا الإثم. ويعترض "ت . س إليوت" على استنزاف الموارد الطبيعية ويؤكد أن قسطاً ضخماً من تقدمنا المادي هو تقدم يدفع ثمنه غالياً الأجيال القادمة.

فالمجتمع كيان بين أجيال تتماسك برباط خلقي جليل بين الأحياء والأموات والذين سيولدون[49]. ولهذا يصحوا العالم في يوم محدد هو "يوم الأرض"[*] يجتمع فيه الجميع ليبحثوا عن الحلول المناسبة لحفظ حقوق الأجيال في بيئة نظيفة[50].

إن قيام فلسفة أخلاق بيئية قائم على أساس النزعة الإنثروبولوجية الميتافيزيقية Metaphysical anthropocentrism بحيث يتم طرح تمييز بين نمطين من النزعة الإنثروبولوجية الميتافيزيقية والنزعة الإنثروبولوجية الكلاسيكية Classical anthropocentrism والتي ترى أن هناك أولوية وأسبقية أنطولوجية للمكون الإنساني على كل الموجودات بمعنى أن البشر وحدهم دون غيرهم هم من

([49]) مايكل زيمرمان: الأخلاق البيئية ، ص163.

([*]) يوم الأرض: هو يوم يهدف إلى نشر الوعي والاهتمام بالبيئة الطبيعية لكوكب الأرض أسسه السناتور الأمريكي" تايلورد نيلسون كيوم" محدد في 22 إبريل 1970.(*) ممدوح عطية: أثر الملوثات الطبيعية على البيئة، 2001 ، دار حواء ص2.

([50]) ممدوح عطية: أثر الملوثات الطبيعية على البيئة، ص3.

يمتلكون كيان أخلاقي، وتشريعي بحكم تفوقهم الموضوعي في النظام الكوني، والنزعة الإنثروبولوجية الميتافيزيقية وهي التي تقرر أنه يجب النظر إلى الكون الإنساني بكل أنظمته داخل المجال الرحيب للكون والذي يضم مكونات أخرى لكل الموجودات، فوجودنا وجود تفاعلي مع كل عناصر البيئة المحيطة ولا يمكن فهم المكون البشري بمعزل عن بقية المكونات الأخرى التي تتشابك وتتفاعل معه[51].

ومعظم الفلاسفة يميلون إلى فلسفة أخلاق بيئية نابعة من النزعة الإنثروبولوجية الميتافيزيقية وتتمسك بالتزام أخلاقي تجاه الأجيال القادمة، والتي تدعو أيضاً إلى أن نستخدم تجربتنا الجمالية للعالم لطرح جدال برجماتي لإدراك قيمته الطبيعية، إن جمالية الاحترام يمكنها أن تطرح فلسفة أخلاق بيئية إنسانية وبهذا فإن علم جمال التقدير يمكن تشيده بدء من فلسفة "كانط"[52].

توجد رابطة بين التجربة الجمالية للجليل وفلسفة الأخلاق عند "كانط" وهي كون الجمال رمز للأخلاق، كذلك يؤكد "كانط" أن تجربتنا عن الجمال الطبيعي والاكتفاء الذي يبديه لنا يكشف مباشرة الدعوة الأخلاقية للكائنات العاقلة التي نحنو عليها. وتلاحظ أن تحليل الجميل ولا نظرية الرمزية تخصص موضوعاً لمفهوم التقدير ولهذا يجب أن نخلص إلى أنه بالنسبة للفيلسوف "كانط" هناك غيبة رابطة جوهرية بين تجربتنا للجمال ودعوتنا الأخلاقية فهو أكد سابقاً أن الأشياء الجميلة والمناظر الطبيعية لا تستثير فينا الشعور بالاحترام والتقدير، أما تجربة الجليل فإن "كانط" يضع التخيل والعقل في علاقة، عبر تأمل قوة الحكم. إن مفاهيم العقل معروضة مباشرة في التجربة الحسية، وهذا العرض يتخذ شكل الشعور بالجليل والذي هو لذة سالبية يجري استشعارها في وجه الاتساع

(51) Denis Dumas: toward an Aesthetics of respect: Environmental Aesthetics. P80.

(52) Ibid: p80.

اللامتناهي " الجليل الرياضي" أو القوة المرعبة للطبيعة " الجليل الدينامي" أو الحركي[53].

إن مفهوم التوقير يبدو في تحليل الجليل الرياضي فهنا نجد تجربة من خلالها نشعر بعدم اللذة عندما نواجه بالمتسع اللانهائي على سبيل المثال منظر طبيعي يبدو أنه ممتد إلى مالا نهاية وعدم اللذة يصدر عن حقيقة أن التخيل يفشل في أن يقوم في التجربة. فكرة اللاتناهي المقترنة بالعقل وعدم اللذة هذا يتيح بدوره لذة سلبية، في تأمل الطبيعة فإن الإنسان يعايش الشعور بالجليل وفي هذه اللحظة فإن شعوراً بالاحترام يصبح متجلياً، إن الشعور بعدم تكافؤ قدرتنا للحصول على فكرة إن هذا قانون يجب إحترامه، إننا نضفي على الموضوع الطبيعي الاحترام الذي ندين به لأنفسنا[54].

لقد أشار "كانط" أن هناك تقديراً للطبيعة نابع من قيمتها الجمالية رغم أنه يذكر هذا ولكن لمرة واحدة طوال كتابه "نقد ملكة الحكم" أو أننا نستطيع أن نمتلك اهتمامًا للجمال الذي يوجد في الطبيعة بصفة عامة وأنه فوق ما يجاوز الطابع المنزه عن الغرض للحكم على الذوق المطبق على جمال الأشياء المفردة، فإن الذات التي تحب وجود الجمال في العالم الطبيعي تظهر بشكل غير مباشر انشغالاً أخلاقياً.

ولهذا إن العقل يجب أن يتخذ اهتمام بكل تجلي في الطبيعة بما يتطابق بشكل مماثل مع هذا، وبالتالي فإن العقل لا يستطيع أن يتأمل الجمال في الطبيعة بدون أن نجدها هي ذاتها لتكون حاضرة، وهذا الاهتمام هو اهتمام أخلاقي[55]. إن

([53]) Ibid: p82.

([54]) Ibid: p83.

([55]) Arnold Berleant: from Beauty to duty: Aesthetics of nature and Environmental Ethics, p131.

التفكير " الكانطي" يؤسس ذاته بوضوح على تصور مركزي لعلاقتنا بالطبيعة، إن البشر يشغلون مكانة ممتازة إنهم هم الكائنات الوحيدة القادرة على أن تكون غايات في ذاتها حيث أنه لا يوجد شئ طبيعي أخر يستطيع الحصول على مكانة الذات الأخلاقية وأي محاولة لمد الهيمنة الأخلاقية إلى الكائنات الطبيعية الأخرى إنما سيصطدم بهذا التفكير ولكن مع ذلك التقدير الجمالي للطبيعة يبدأ من "كانط" وهناك فقرات من نصوص كانط تدعم فكرة التقدير الأخلاقي للطبيعة في كتابه "نقد ملكة الحكم".

"ربما نعتبر هذا منحة من أن الطبيعة قد عملت من أجلنا أنه بالإضافة للفائدة فإنها قد ساهمت مساهمة حسنة في الجمال والأمور الساحرة"[56].

إن "كانط" يذكر التقدير للطبيعة بصفة عامة على نحو أكبر من الموضوعات الطبيعية الجزئية، وكذلك ربط بين هذا المجال بالشعور بالحب، من خلال فضيلة قيمة الجمال وباستقلال عن قيمة الأداتية، فالقيمة الجمالية للموضوع تفرض علينا واجب غير مباشر فيما يقتضي بها كما لو كانت قد امتلكت قيمة باطنية، وفي المحصلة فإننا نجد عناصر لدى "كانط" ترد الفكرة الجميلة إلى التقدير الجمالي للطبيعة، الحكم المنزه عن الغرض لتذوق الجمال الطبيعي كرمز للأخلاقيات وأن تحل محل احترام الموضوع الطبيعي والتقدير للإنسانية ومحبة الطبيعة الجميلة، والواجب الأخلاقي على ألا يدمر مثل هذا الجمال.

ويبدو أن مفهوم التقدير الجمالي للطبيعة ينطبق وحسب على تجربة الجليل وليس على الجميل مما يوضح أن مفهوم علم جمال التوقير ضيق جداً.

([56]) Denis Dumas: toward an Aesthetics of respect Environmental Eesthetics, p80.

إن التفكير إزاء احترام القيمة الجمالية للبيئة الطبيعية يتضمن بالضرورة توسيع مجال مفهوم التوقير على نحو ينطبق على تجربتنا في الجمال، ومثل هذا التحول يمكن أن يجرى تبريره إذا ما وضعنا في الحسبان المعنى المتسع لمفهوم التوقير بمعنى أن هذا الشعور إنما يدفعنا لعمل أخلاقي وعلينا أن نضع في الحسبان أن هناك توقير للقانون الأخلاقي وحده ولكن ذلك على نحو غير مباشر فإن الكائن البشري يستطيع أن يحترم القانون فيما يتعلق بذاته، زيادة علي ذلك فإن مفهوم التشويه في تجربة الجليل فإنه يفترض لنا أن الاحترام للإنسان يمكن أن يقاس مباشرة عبر التقدير للطبيعة، والأبنية البشرية، إنه امتداد من الدرجة الثانية للاحترام، وأن تكامل الجمال في علم جمال التقدير يصبح إذا ما أدخلنا في الاعتبار الروابط التي تجمع بين الشعور بالجميل والأخلاق بمعنى التقدير الذاتي غير المباشر غير الاهتمام الذي لدينا في الجمال الطبيعي والواجب ألا ندمره– وكلاهما قابلان للتغير وفق إلزامنا الخلقي باحترام جمال البيئات وتقدير الجميل وتوقيره والذي يدور في فلك الأخلاق البيئية والتي تربطنا بحماية البيئة لتأكيد حقوق أجيال مستقبلية وتقدير الطبيعة وتوقيرها إنما يشكل أساس أكثر ملائمة لربط علم الجمال بفلسفة الأخلاق– إن علم جمال التقدير يمكن أن يتبين علاقته الممتدة بشكل كبير إذا ما طبقناه ليس فحسب فقط على البيئات المتحولة أو البنائية بشكل كامل من جانب البشر وهذا يمكن أن يتضمن التوجه فيما وراء التفكير "الكانطي"، وهذا المنظور واعد لأنه يسمح بإدراك القيمة الجمالية للأبنية والصروح والبيئات الحضارية، إن الفكرة الجوهرية تتأكد فيما هو تقدير للبيئة وللإنسان الذي يحترمها. إن الفلسفة البيئية القائمة على النزعة الإنسانية تشمل فلسفة أخلاق مؤسسة على التزاماتنا الأخلاقية تجاه الأجيال المستقبلية والتي تسمح بصياغة الآمر الأخلاقي البرجماتي أو علم جمال التقدير للقيمة الجمالية للبيئات الطبيعية والاصطناعية.

جـ- دور الخيال البيئي في تنمية الوعي بالطبيعة

هل يستطيع الفن أن ينقذ الطبيعة، في كثير من الأعمال السينمائية مثل العمل السينمائي اليوم بعد غد the day after tomorrow.

يتم عرض مشكلة تغير المناخ Climate change فيعرض الفيلم مدينة نيويورك غارقة تحت المطر وشاطئ البحر الشرقي تجمد، إن الفن يطرح نتائج على فكرة موجودة بالفعل وهي تغير المناخ وهو ما يوقظ فينا مسئوليتنا تجاه الأجيال القادمة والعمل على زيادة كفاءة مؤسساتنا الاجتماعية والثقافية والسياسية لكي نستطيع مواجهة القادم(57).

إن الفلاسفة يميلون إلى الاعتقاد بأن مقالة جيدة وكتاب جيد هو جرس إنذار لكثير من المشاكل وهنا يأتي دور الفن في تفعيل دور التخيل عند الكثيرين لتوصيل فكرة أن الجميع في مركب واحد وأن الحفاظ على البيئة هو الخير لنا وللأجيال القادمة(58).

ومن هنا نتساءل هل يستطيع الفن أن ينقذ الأرض– إننا في حاجة ماسة إلى تفعيل التخيل، وليس مجرد العقل، فالفن قادر على رسم مستقبل مخيف عن طريق الصورة السينمائية إذا ما استمر الإنسان في تدمير البيئة . عندما نفكر في الدمار البيئي فإن ما يرد على البال هي الأنواع الهائلة المتباينة من التغيرات في درجة الحرارة والتوقف إزاء أنظمة الحياة المتماسكة وإذابة التراكمات الجليدية، وارتفاع مناسيب البحر، وهكذا إن الأرض ذاتها كوكب ستلتهما الشمس عبر سبعة بلايين سنة، إن إنقاذ الأرض ليس بالمحافظة على قطعة من الصخر لنكن

(57) David Wood: can only art save us now, Environmental Aesthetics, p118.
(58) Ibid: p118.

صادقين بالنسبة للأرض ضد تلك الحركات النافية للحياة ، تلك التي تسقط الخلاص أو الخير على عالم مفارق ، وهذا لا يولد فقط حلول زائفة إنه يعمينا إزاء تعقد دينامية الأرض بشكل متكثر[59].

إن الأرض هي كلاً من تأسيسنا المادي وغير العاطفي وعندما تتأتى إلى فهم هذا يكون هناك انفتاح إلى نوع مختلف من التفكير والمسئولية. إن إحساس "هوسرل" بالأرض على إنها سفينة نوح هي محاولة لاستكشاف ظاهرياتي لمعنى الأرض على إنها المركز الذي يتحرك وشرط حيواتنا.

ومع "هيدجر" فإن الأرض تبرز في أماكن مختلفة في سياق ما نسميه التكشف وهو يكتب عن إنقاذ الأرض المرتبطة على نحو حميمي بالسكنى الإنسانية فيقول: (إن الموتى يسكنون على أنهم ينتقذون الأرض... وإن إنقاذ الأرض لا يعني السيطرة على الأرض وليس إفسادها)[60].

إن إنقاذ الأرض يعني إدراك الأرض كأرض ولكن ماذا تكون الأرض إنها مجرد كوكب كما يطرحها "هيدجر" ، إنها حاملة البقاء والازدهار والإثمار[61].

ولقد أكد "هيدجر" في "أصل العمل الفني" أن الفن يبرز في المقدمة إن "هيدجر" يفهم العمل الفني على أنه حيوي وهام وهو ما يسميه بالنزاع بين الأرض والعالم ، إن معبداً يونانياً على سبيل المثال هو موقع العلاقة الطقوسية والاحتفال بالأحداث الإنسانية ذات المعنى[62].

([59]) Emily Brady: Aesthetics in practice: valuing natural world , P278.

([60]) David Wood: can only Art save us now: Environmental Aesthetics, p122.

([61]) Ibid, p122.

([62]) هيدجر: كتابات أساسية، ت/ إسماعيل المصدق ، ص35.

يقول "هيدجر": (في الحقيقة الفن يكمن خفياً في الطبيعة، ومن ينتزعه منها يمتلكه، لقد أراد هيدجر للإنسان أن يعود إلى جوهره وإنسانيته ووسيلته في ذلك الفن محل امتلاك الإنسان للأشياء بدل امتلاك الأشياء للإنسان ومن ثم كان العمل الفني ليس إنتاج ذاتية جزئية بل هو إنتاج الماهية العامة للشيء. إن العمل الفني يفتح كوة ينقذ منها الوجود وتنقذ منها الحقيقة، العمل الفني يفتح بطريقته الطريق لوجود الموجودات وهذا الكشف يحدث في العمل الفني فحقيقة ما هو موجود تعمل. إن الفن هو الحقيقة وقد أطلقت نفسها للعمل)[63].

إن جوهر الفن هو أن تكون به حركة، لكن هذه الحركة لا يجب أن تكون من الشئ إلى العمل بل من العمل إلى الشئ يجب أن يكون الاتجاه من الجوهري إلى الأشياء لنضفي عليها الجوهري[64].

الفن هو إنقاذ للإنسان للخروج من حالة اغترابه وهذا يعني أن يسكن الإنسان بشاعرية على الأرض فليست الشاعرية تحليقا ولكنها تأسيس للجوهري العودة إلى الينبوع والأرض والبيت والوطن هي عودة إلى الإنسان.

إن "هيدجر" ينادي بأن الفن يستطيع أن يطرح النزاع بين الأرض والعالم، يستطيع أن يكشف الحقيقة ويجعلها متاحة لنا، إن الأرض باعتبارها التأتي التلقائي لذلك الذي هو باستمرار مستمر وإلى هذا المؤى والذي هو موضع اختباء ومن هنا فإن مشكلة الاغتراب هي تاريخية وعلى هذا الأساس فإن الفن بشكل محوري منشغل بالسكنى وهو يسمح لنا أن نرى الأشياء في شكل جديد، ويعيد فتح الميدان المنغلق للأمزجة المتجسدة، ويغير من عاداتنا السيئة تجاه الأرض من

(63) مجاهد عبد المنعم مجاهد: فلسفة الفن الجميل، دار الثقافة ، 1997، ص89.
(64) مجاهد عبد المنعم مجاهد: تاريخ علم الجمال، دار الكلمة، 2012، ص182.

خلال إحداث الصدمة أو الإنذار بالزوال، وهذا يساعدنا في إنقاذ الأرض بمعرفتنا أن عاداتنا السيئة هي التي تدمرها(65).

إن الفن هو موقع رائع لاستكشاف أشكال بديلة للتجسيم من خلال طرح فكرة مجسدة في عمل فني تشير إلى تغير تام في الحياة نتيجة عادات سيئة من الإنسان تجاه الأرض وأثر ذلك على حياة الأجيال المستقبلية ومن ثم فإن الفن قادر من خلال مساحة عرض هائلة مصدرها الفنون أن يشجع ويروج للمقاومة إلى درجة كبيرة(66).

كذلك للصورة في حد ذاتها دوراً كبيراً في تكوين الخيال البيئي لدى الجمهور في عام 1860 احترق نهر "كوياهوجا" Cuyahoga River الذي يتدفق عبر ولاية "كلافلاند أوهويو" Clevenland Ohio وهذه الظاهرة لم تثير الدهشة حتى 1969حينما حدث تغير حاسم في التخيل الثقافي الأمريكي وارتبط بنهضة التخيل البيئي نتيجة لاهتمام وسائل الإعلام وفي عام 1968 فإن مجموعة أبولو 8 أرسلت صورة إلى الأرض من الفضاء، وكذلك فإن "ناسا" لديها صور بعثت شعوراً بهشاشة كوكبنا في كون متسع(67).

كذلك أظهر ما يسمى بالمنظر الهولندي الواقعي في مدرسة الرسم في القرن السابع عشر تأثيراً ارتبط كثيراً بالتغيرات الشديدة في الثقافة الهولندية. إن التخيل البيئي هو أداة تصورية للكشف كيف يمكن للصور المختلفة المميزة والراسخة أن تغير في الإدراك المرتبط بتغير مكان البيئة في التخيل الثقافي. إنه يعمل

(65) David wood: can only Art save us now: Environmental Aesthetics, p129.

(66) Arnold Bereant: Environment and the Art, p130.

(67) Irene. J. Klaver: Landscapes of the environmental Imagination: Environmental Aesthetics, p135.

كعدسات لإظهار انقسام في العملية والصور تعمل كبارومتر يقيس التغير في العلاقات البيئية ومن ثم فإن الوعي البيئي يؤدي إلى تغيرات جذرية في السياسات البيئية[68].

إذا كان الخيال هو ملكة من ملكات العقل وهو أداة الإبداعية وفي الفلسفة البيئية فإن التخيل لم يكتسب بعد الكيان المستحق إلا من خلال فلسفة الأخلاق البيئية، كذلك هناك علاقة قوية بين الخيال البيئي والكيان الاجتماعي البيئي للأدب، بدأ بما لدى "بندكت أندرسون"[*] Benedict Anderson (1936–2015) في انشغاله على التخيل في سياقات حالة الأمة وهو في كتابه الهام عن التخيل "الجماعات المتخيلة" 1983 فإن إندرسون يحدد الأمة على أنها جماعة سياسية متخيلة، وهو يسميها متخيلة لأنها لم تعرف إطلاقاً معظم أعضائها أو الالتقاء بهم، ومع هذا في عقل كل منهم تعيش صورة جماعتهم فهم مرتبطون باعتبارهم جزء من الأمة نفسها[69].

كذلك نرى إدوارد سعيد[*] (1935–2001) وهو أحد أبرز واضعي أطر الكولونيالية أو فكر ما بعد الاستعمار ذلك الخطاب النقدي الذي يتناول الآثار الثقافية والاجتماعية التي خلفها الاستعمار، إنما يطور إحساساً لما هو متخيل في مفهومه عن الجغرافيا المتخيلة والتي لا تشير إلى اختلاف أو زيف من الإحساسات بالمكان، ولكن بالنسبة للمسافات التي تواجدت من خلال مناهج

([68]) Ibid, P135 .

[*] بنديكيت أندرسون: أستاذ الدراسات الدولية والأسيوية جامعة كورنيل.

([69]) Irene. J. Klaver: Lanscapes of the Environmental Imagination, p136.

(*) إدوارد سعيد : مناظر أدبي فلسطيني وحامل الجنسية الأمريكية أستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة مؤلفاته (الإستشراق - تغطية الإسلام– خارج المكان– صور المثقف).

معينة ونصوص وصور فإنه في مؤلفه "النزعة الشرقية" ينتقد الطريقة التي خلفتها الثقافة الغربية من خلال صورة الشرق كأرض مؤنثة بدون قدرة على التحكم في ذاتها بطريقة منظمة وهذا مثال لما سماه إدوارد سعيد بالجغرافيا المتخيلة[70].

كذلك لعبت رسومات "جورجيا أوكيف" Georgia Okeefe[*] (1887–1986) "وأنسلم كيفر" Anselm Kiefer في القرن العشرين دوراً هاماً في توضيح علاقتنا بالأرض ودور التخيل البيئي في إيقاظ الوعي مما قد يؤثر في التغيرات في السياسة البيئية من خلال لوحاتهم التي شكلت علاقة فريدة ثقافية بالأرض[71].

إن الأمة الأمريكية الوليدة عانت من الإحساس بالدونية الثقافية إزاء أوروبا من جراء التاريخ القومي والثقافي لها وأن رسامي اللوحات من مدرسة نهر "الهدسون"[*] 1825– 1875 زودت أمريكا بإحساس الثقة بالنفس من خلال لوحاتها عن الأنهار التي تجري باستمرار من خلال أراض واسعة وغابات متوحشة وجبال صخرية، وهو ما كانت أوروبا تفتقده ودعمته بشكل قومي ودولي هوية فنية أمريكية من خلال تصورها الجليل للوحات المتوحشة إن هذا التخيل ولد قوه لا تزال ذات نفوذ لتجربة ظهور الهوية الثقافية الأمريكية وفي عام 1997 فإن الكونجرس الأمريكي أعلن أن وادي نهر "الهدسون" هو المنظور الذي يحدد أمريكا والمساحة جرى اعتبارها متنزه قومي[72].

([70]) Irene. J. Klever: Landscapes of the Environmental Imagination, p136.

[*] جورجيا أوكيف: فنانة أمريكية بزغ نجمها 1916 استوحت أعمالها من الطبيعة.

[*] انسم كيفر: فنان ألماني كرم من أكاديمية الفنون الملكية في لندن وأول فنان ينال جائزة السلام لسوق الكتاب الألماني.

([71]) Arnold Berleant: Environment and Art. P130.

[*] نهر الهدسون نهر في نيويورك يمر في شرق ولاية نيويورك في الولايات المتحدة.

([72]) Irene. J. Klaver: Lanscapes of the Environmental Imagination, p146

إن التخيل لا يأتي من فراغ إنه يحتاج إلى وسائل التناسخ ومدرسة نهر "الهدسون" قد حددت للبلاد نظرة جديدة إن الصورة أظهرت للناس أماكن غير مرئية وحينئذ فإن البيئة المشيدة والمخيلة أعطت ظهوراً إلى اختبار جزئية عن طبيعة الوجود. إن ناسا أبولو 8 التقطت صورة الأرض من منظور مداري قمري، وأظهرت لنا التناسبات الكونية غير المرئية لكوكبنا، وهذه الصورة وسعت من فكرة "بندكيت أندرسون" عن الجماعة المتخيلة ويمكننا القول أن الأعضاء على سطح الأرض لا يعرفون رفاقهم ولا الالتقاء بهم ومع هذا في عقل كل منهم تعيش صورة تجمعهم.

تعقيب

يمكننا طرح فرضية هل يمكن الانتقال من الجمال إلى الواجب؟ من علم جمال الطبيعة إلى الأخلاق البيئية.

يقول أرسطو في الميتافيزيقا "عندما تعجز الطبيعة يأتي الفن فالإنسان أنبل أبناء الطبيعة وإذا كان هدف الطبيعة هو التناغم بين الأضداد فإن حركتها كامنة في أداء هذه الغاية" وكذلك الفن هدفه تحقيق التناغم بين الأجزاء وهذا هو منشأ الجمال.

ما هو إذن ذلك الذي يكتشفه الفنان في الطبيعة والذي لا يستطيع أحد سواه أن يوصله للعالم؟ يقول فنان الرومانسية صاحب اللوحات الزيتية للمناظر الخلابة "كونستابل" أن الفنان في تصويره للطبيعة يبحث عن الامتياز في مصدره الأولي فعن طريق ملاحظة الطبيعة عن قرب يكتشف بنفسه ما يوجد فيها من مميزات لم تصور أبداً من قبل، ويقول "أرسطو" أن كل شئ في الطبيعة له مغزي وإنه وجد لخدمة الإنسان ويقول "بيكون" يجب أن نتحكم في الطبيعة ونخترق أسرارها وأن نغيرها لتحقيق رغباتنا فالإنسان هو مركز العالم وواجب العلم هو السيطرة على الطبيعة.

وفي عام 1984 نادي الفيلسوف الألماني "هانز يوناس" بضرورة حماية الطبيعة للأجيال القادمة والتي سوف يحدد مصيرها بما تفعله الأجيال الحالية وذكر أنه يجب أن نمارس الحكمة في تعاملنا مع الطبيعة.

إن قيمة الطبيعة وكل ما فيها من كائنات حية لا ترتبط بمنفعتها للإنسان فالتنوع البيولوجي له قيمته الذاتية والأخلاق البيئية بدأت تاريخها من شعورنا بقيمة الطبيعة لنا ولغيرنا ولهذا اعتبرت الأساسيات التاريخية المطلقة للحفاظ وحماية البيئة هي أساسيات جمالية ومؤخراً أعلن قانون النوعيات المعرضة للخطر أن مثل هذه النوعيات لها قيمة جمالية للأمة وشعبها.

وإذا كنا نستمتع بمنظر الجبال الشاهقة والغابات الكثيفة بقولنا يا له من جمال فمن الواجب الأخلاقي أن يحافظ الفرد على هذا الجمال وألا يدمر أي شئ ذا قيمة وهذا يشمل القيمة الجمالية إن الأخلاق الجمالية يجب أن تحاط بالقوة خشية أن تنتهك إن الإنسان يرتبط بالطبيعة في جدل إبداعي ويتبناه الفرد للتقيم والمحافظة، ليست الطبيعة في حد ذاتها ولكنها علاقة البشر بالطبيعة وتحدد العبقرية الجمالية في الإتحاد.

يقول "أرلوند برلينت" أن المنظر الطبيعي مثل مجموعة ملابس فارغة بدون معنى بعيداً عن مرتديها وبدون وجود الإنسان فإن البيئة تمتلك فقط احتمالات.

إن المناظر الطبيعية بعيداً عن البشرية قد تكون عديمة الجدوى وتحتاج إلى البشرية من أجل التقييم.

ولكن ماذا لو لم تكن الطبيعة جزء من ملابسنا، بمعنى هل تختلف قيمة الجمال الطبيعي عندما لا نكون حاضرين؟.

إن الأخلاق ترتبط تماماً بالخبرات والتجارب البشرية فالجمال البيئي لا يرتكز على رؤيتنا له لكن إتباع أخلاق بيئية إتباع واجب نحو الطبيعة يلتزم إدراك الأشخاص لقيمة الطبيعة.

لقد استشعرت الدول الصناعية الكبرى خطورة الآثار البيئية الضارة وخطورة عدم وجود أخلاق للتعامل مع البيئة لذلك دعت إلى مؤتمر عالمي في السويد 1972 وأسفر المؤتمر عن نتائج مؤداها أن الإنسان هو المسئول الأول عن كل ما يحدث في الطبيعة ثم عقد مؤتمر "ريو دي جانيرو" في البرازيل 1992 والذي استهدف إنقاذ الأرض بضرورة المحافظة على التنوع البيولوجي بكافة أشكاله لأن الأجيال القادمة لها نفس الحقوق وفي عام 2015 تم عقد مؤتمر قمة المناخ في فرنسا بمشاركة مصر ومجموعة من الدول.

نحن أبناء البلدان النامية في أمس الحاجة إلى تلبية حقوق الإنسان الأساسية المتنوعة واللازمة البيئة هي أزمة مصير تخطي الجنس البشري بأكمله وليست حكر على فئة أو بلد أو شعب ولذلك سمة مصلحة مشتركة في البقاء تتطلب تضافر المنظومات الفكرية المختلفة في إطار بناء نظرة جديدة إلى العالم.

قائمة المراجع

أولا- المراجع العربية:

1) إنوكس: النظريات الجمالية (كانط– هيجل– شوبنهاور) ت/ محمد شفيق شيا، منشورات بحثون، بيروت، 1985.
2) إيمانويل كانط: مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علماً، ت/ نازلي إسماعيل حسين، دار الكاتب العربي، 1967.
3) بشير خلف: الجمال فينا ومن حولنا، دار الريحانة، الجزائر، 2008.
4) حافظ شمس الدين عبد الوهاب: التفكير العلمي وصناعة المعرفة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015.
5) د.و.ها رونج: الرومانتيكية في الأدب الإنجليزي، ت/ عبد الوهاب المسيري، مؤسسة سجل العرب، 1964.

6) رمضان بسطاويسي: الجمال، سلسلة الشباب، العدد 11، دار الأمل للنشر، 2004.
7) عبد الغفار مكاوي: نداء الحقيقة، الهيئة المصرية للكتاب، مكتبة الأسرة، 2010.
8) عبد الفتاح مصطفى غنيمة: أصول البحث في الفنون التشكيلية والتطبيقية، مطابع جامعة المنوفية.
9) عبد المنعم مصطفى المقمر: الانفجار السكاني والاحتباس الحراري، عالم المعرفة، العدد 391، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، 2002.
10) علي شناو آل وادي: فلسفة الفن وعلم الجمال، دار صفاء للنشر، عمان، 2012.
11) علي محمد علي عبد الله: التلوث البيئي والهندسة الوراثية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.
12) مايكل زيمرمان: الفلسفة البيئية (من حقوق الحيوان إلي الإيكولوجيا الجذرية)، ت/ معين شفيق رومية، عالم المعرفة، العدد 333، المجلس القومي للثقافة والفنون الآداب، الكويت، 2006.
13) مجاهد عبد المنعم مجاهد: تاريخ علم الجمال، دار الكلمة، 2012.
14) مجاهد عبد المنعم مجاهد: فلسفة الفن الجميل، دار الثقافة ، 1997.
15) محمد كمال الدين يوسف: الأدب والمجتمع، القاهرة، 1964.
16) محمد مجدي الجزيري: الفن والمعرفة الجميلة عند كاسيير، دار الوفاء، 2002.
17) محمود البسيوني: الفن في القرن العشرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ، 200، ص110.
18) ممدوح عطية: أثر الملوثات الطبيعية على البيئة، دار حواء، القاهرة، 2001.
19) منى قاسم: التلوث البيئي والتنمية الاقتصادية، مكتبة الأسرة، 1999.
20) هيدجر: كتابات أساسية ت/ إسماعيل المصدق، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، العدد 504، 2003.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1) Allan : (D.J.), the philosophy of Aristotle, 2nd edition, Oxford university, press 1970.

2) Allen Carlson: Tenseness in development of western environmental aesthetics, fond ham, un, press, 2014.

3) Arnold Berleant, ed,. Environment and the Arts: perspectives on environmental aesthetics. Alder shot, Hampshire, uk, and Burlington, vt 2002.

4) Cooper (D): A companion to Aesthetics. Black well (pub.) 1st td 1996.

5) Drenthen. (Martin): Environmental Aesthetics Fordham university press, Newyork, 2014.

6) Emily Brady: Aesthetics in practices: valuing the natural world. University of Edinburgh white horse press , 2006.

7) G.E.R Lioyed: Artistotle, the growth structure of his thought, Cambridge university, press 4th published, London, 1980.

8) Richard. Sutton: Aesthetics for green roofs and green walls, Journal of Living Architecture, 2014.

9) Sara Cornal: Art (history of changing style), phaidon, oxford, 1983.

10) William Vaughan: Romantic Art, Thames and Hudson, ld, London, 1978.